من قضايا ادبنا المعاصر

« أنا مرافق رحلتك على صفحات « الآداب ». صديقك في زواياك .. شريكك فيما تلتقط .. بل فيما تلد من افكار جريئة مضيئة ..

وحديثك عني في سياق كلمتك عن الاستقلال والتبعية في الفن ، هل أشكرك عليه ؟ لا .. فانني لو فعلت لأسأت الى هذا الحياد الفني الذي امتاز به البحث . لا شيء من هذا يا اخي .. فانا لا اريد ان اضع نفسي في هذا الموقف . وكل ما اريد ان اقوله انك خير من عالج قضية « الادب السيد » و « الأدب الأجير » .. وخير من وضع الحدود الفاصلة بينهما . ولعلك كنت معتدلاً اكثر مني في تسميتها بالأدب المستقل والأدب التابع . فأنا افهم ان تكون الكلمة سيدة .. او لا تكون ! افهم ان يكون الحرف مغطوطاً ببؤبؤ عين كاتبه او لا يكون ! ومصيبتنا في هذا العصر بل في جميع عصور الأدب العربي – باستثناء العهدين الأندلسي والمهجري – اننا نتحرك في حركة دائرة .. لا حركة منبسطة .. حركة دائرة تجتر نفسها .. وتمضغ تاريخها .. حركة جميع نقاطها متشابهـــة .. يعني ميتة .. شوقي نفسه .. لم يكن سوى دائرة .. تدور على نفسها وعلى التاريخ .. ومثلما تتشابه النقاط التي تتألف منها الدائرة .. تشابه وجه شوقي ووجه ابي تمـــام .. ووجه المتنبي .. ووجه ابن زيدون .. حتى امسينا في زحمة الوجوه لا ندري وجه هذا .. من انف ذاك !

إن الموضوع يا أخي يستأهل أكثر من لقطة واحدة . إنه يستحق دراسة كاملة للشعر العربي بـــين السيادة والعبودية .. فما رأيك في هذه الدراسة الضخمة ؟ أعتقد انك صاحبها ..

اما الالتزام .. فأنا مسرور لأنك لم تتحمس له كثيراً رغم قولك انك من أنصاره المتطرفين .. وانا اعتقد أنه فورة عابرة يمر بها الشعب العربي الآن بحكم قلقه وتأرجح مصيره . ولا أخطر في رأيي من تقسيم النتاج الفني اليوم إلى ملتزم .. وغير ملـتزم .. إلى معسكر شرقي .. ومعسكر غربي .. إلى ادب صالح .. وأدب لسلة المهملات .. فاذا كان الأدب الملتزم هو ما نقرأ اليوم .. من برقيات صحفية « كما قلت » .. او جمل كالتي نقرؤهـــا في باب الاعلانات المبوّبة في جريدة الأهرام .. « وشربت شايا في الطريق .. » فيا رحمة الله على الفردية في الأدب !

إنني لا اقف في وجه ادب يخدم المجتمع وينفعه . لكنني اقف في وجـــه مجتمع يفرض على الأدب قوانينه ويشترط على الأفكار والأحاسيس ان تسير في فلك يرسمه هو .. إن تجربة الأدب الحكومي فشلت حتى في الاتحاد السوفييتي . وقد قرأت في إحدى المجلات اخيراً ان الشعب السوفيتي زهـد بأطنان الكتب التي تنشرها الدولة ، فهو يبحث الآن في المكاتب عن الأدب الكلاسيكي الروسي الذي كان احفل بعواطف الانسان .. واشد التصاقاً بأمانيه وحياته . كما قرأت ان الأكاديمية السوفيتية لفتت نظر الكتاب الى ان آثارهم اصبحت جافة خالية من دفء المشاعر الفردية الضرورية لكل ادب. ايكون هذا صوت الندامة ؟ لدى الدول التي ترى في الأدب .. قضية .. لا تختلف عن قضية الاقتصاد المسير .. ومشاريع السنوات الخمس .. او العشر؟!

لقد كنت منصفاً يا انور في اعتبارك الالتزام « اتجاهـــاً » يجب ان لا يشغلنا عن اجادة الاثر الفني . وكنت محقاً حين قلت ان الاتجاه وحده لا يكفي إذا لم يكن وراءه فن عظيم .. وبهذا اخرجت من القائمة اكواماً من هذا الادب المسيخ .. الذي يظن انه بلغ الكمال لمجرد كونه ملتزماً !

« لندن » **نزار قبـاني**

نزار قباني في هذه الرسالة التي بعث بهـا اليّ ، والتي يعقب فيها على بعض ما ورد من آراء في باب « الزوايا واللقطات »، يثير من قضايا الأدب كل ما هو جدير باهتمام القراء .

فالأدب المستقل والأدب التابـع قضية ، والأدب الملتزم والأدب المنفصل قضية اخرى ، والأدب الحكومي والأدب الحر قضية ثالثة ، وشبهة عدم تحمسي لهذا الأدب الذي يعيش تجربة عصره قضية رابعة، قد يعدها غيري على الهامش؛ أمـا أنا فأعدها في صلب الموضوع !

يدور نزار بعدد من وجهات النظر حول هـــذه القضايا، ولكنه يريد ان يحصرها في قضية واحدة ، هي قضية الأدب المستقل والأدب التابع أو كما يسميها هو قضيـة الأدب السيد والأدب الاجير.. ولا مبرر في رأيه لأية تسمية أخرى ، لأن الكلمة من خلال منظاره الفني إما ان تكون « سيدة » أو لا تكون .

هـذا المبدأ الذي يحدد تقييم الأدب مـــن ناحية « سيادة » الكلمة لا اعتراض لي عليه، ولكننا نحب أن نحدد مفهوم هذه السيادة لتلتقي وجهتان من وجهـات النظر أو لتضيق بينهما دائرة الخلاف .. هناك كلمة سيدة من ناحية «التعبير» وهناك كلمة سيدة من ناحية « الاتجاه » . ومفهوم السيادة بالنسبـة إلى الكلمة الأولى هو مفهوم الذاتية الأسلوبية للفنان، متمثلة في الطابع والطريقة ، او في اللغة والموضوع .. إلى آخر ما قلتـه عن هذا المفهوم في كلمتي السابقة عن « الفن بين الاستقلال والتبعية » . أما مفهوم السيادة بالنسبة إلى الكلمة الثانية فهو أن تتحول هذه الكلمة الى ساحة من ساحات العرض الفـــني لمشكلة من مشكلات المجموع ، أو إلى مركز من مراكز الاضاءة الفكرية لطريق مظلم تسلكه الجماهير.. عندئذ تتمثل سيادة الكلمة في معنيين : هما التوجيه والقيادة !

هذه الكلمة الأخيرة هي كلمة الأدب الملتزم ، وهو شيء آخر غير الأدب الحكومي الذي يعنيـه نزار ويشير – وهو

زوايا ... ولقطات

بقلم انور المعداوي

صادق – إلى ان تجربته قد فشلت حتى في الاتحاد السوفيتي .. إن مصدر فشل التجربة هوأن الأدب الحكومي بطبيعته أدب غير حر ، والأدب لكي يكون ملتزماً لا بد له من ان يتنفس هواء الحرية .. « لا بد من حرية الكاتب فيما يكتب ولا بد من حرية القارىء فيما يقرأ، ليتحقق ذلك الهدف المثالي لمبدأ الالتزام . اما حرية الكاتب فلن تتوفر له الا اذا تخلص من الخضوع لتيارات حزبية معينة تملي عليه ما يتفق ووجهة نظرها من آراء وافكار . واما حرية القارىء فتتمثل في عدم إرغامه على قبول لون بعينه من الانتاج الادبي الذي يتجه الى غاية محدودة وهدف مرسوم ... لا مناص من حرية الفرد الكاتب والفرد القارىء حتى يتمكن الادب من تأدية رسالته الالتزامية . ولن يكون الاديب ملتزماً وهو مشدود الى عجلة حزب سياسي يوجهه فيتجه ويدفعه فيندفع ويسيّره فيسير ، وما دام القراء مقيدين بنظم سياسية خاصة تفرض عليهم ان يقرأوا هذا ويدعوا ذاك فهم عبيد، والادب الملتزم لا يمكن ان يخاطب العبيد »!

كلمات من بحث طويل كتبته عن الادب الملتزم في العدد الثاني للسنة الاولى من « الآداب » ، وهي تلخيص لبعض ما عرضته وانا موافق عليه من آراء لسارتر حول هذا اللون من الادب ... وسارتر من غير شك كان يوجه تلك الغمزات الى هذا الادب الحكومي ليحدد الفوارق الموضوعية بينه وبين الادب الملتزم .

ولقد كتبت هذا البحث بعد ان تحدثت « الآداب » في عددها الاول عن طبيعة اهدافها كمجلة تعنى بشئون الفكر ، وركزت هذه الاهداف في مضمون رئيسي هو مضمون الالتزام الادبي الذي اخذت على نفسها عهداً بان تحمل رسالته . ومن هنا بادرت الى تقديم تعريف كامل لهذا المضمون لتتضح امام انتاجنا الملتزم معالم الطريق . ولقد قلت يومئذ فيما قلت وانا اؤيد هذه الدعوة التي حملت لواءها « الآداب » .

« اننا في مثل هذه الظروف الاجتماعية التي تحيط بنا وهي حافلة باسباب القلق، زاخرة بتعدد المشكلات، لا نستطيع ان نغفل دعوة الداعين الى الادب الملتزم .. وهذه الدعوة الصادقة ، مصبوبة في هذه الكلمات الواعية ، متجهة الى هذه الاهداف المثالية ، جديرة بان يتقبلها الادباء تقبل الايمان الذي لا يشوبه الشك بان الادب تبعة ومسئولية : تبعة حين نفهم انه رسالة توجيه ومشعل اصلاح وقيادة رأي ودعوة حرية وكرامة وعدالة .. ومسئولية حين ندرك ان من واجب الموجه والقائد والمصلح ان يكون اميناً في نقل آرائه، حراً في تكوين افكاره، لان المطلوب من الادب – كما يقول سارتر – ان يخاطب الاحرار وألا يتجه الى العبيد . عندئذ تتحقق هذه الامنية التي تتطلع اليها « الآداب » ، ويقوى الامل في توفير العدالة الاجتماعية للفرد وتحريره من العبوديات المادية والفكرية .. واننا لنعني بكلمة الفرد كل فرد سواء أكان منتسباً الى مجتمعنا القومي ام كان متصلاً بالمجتمع الانساني العام ، وهذه هي مرحلة الشمول التي يجب ان يبلغها الادب مهما اعترضت طريقه الحواجز والعقبات » !

هذا هو موقفي بالنسبة الى الادب الملتزم منذ عامين : دعوة اليه وايمان به ، ورجاء الى الادباء ان يحملوا شعلته ليصل الضوء الى القادمين من بعيد.. ولعل القراء ما زالوا يذكرون موقفي بالامس القريب من توفيق الحكيم . عندما حاول ان يفسر مفهوم الادب الشعبي بما يتفق وطبيعة فنه في هذه الايام، بعد ان فقد هذا الفن سيادة الكلمة سواء من ناحية التعبير او من ناحية الاتجاه ! ان تعصبي للادب الملتزم كما يجب ان يكون ، هو الذي جعلني لا أتحمس كثيراً لهذه الفردية الاتجاهية التي يقف فيها الالتزام وحده دون ان يكون وراءه فن كامل . ذلك لانني اريد لادبائنا الملتزمين ان تكون النسبة القيمية بين الخط الفني والخط الاجتماعي في ادبهم متعادلة، حتى يستطيع هذا الادب ان يحفر في أودية الوعي العربي المعاصر اكثر من مجرى عميق .

ونزار قباني بعد هذا ولا شك، سيد من سادة التعبير – على قلتهم – في الشعر العربي الحديث ... وقد استطاع مرتين ان يضم الى سيادته التعبيرية سيادة الاتجاه ، يوم ان حلق في افق الشعر الملتزم بقصيدته « حبلى » على صفحات « الأديب » ، وبقصيدته الاخرى « أوعية الصديد » على صفحات « الآداب » . ان الادب الملتزم هو كل ادب يتناول باللمسة الواعية مشكلات عصره ؛ ووضع المرأة في مجتمعنا العربي احد هذه المشكلات كما ابرزه نزار في قصيدتيه الملتزمتين .. وهو بعد هذه التجربة يستطيع ان يكون ملتزماً حتى ولو حصر اتجاهه في دائرة الموضوع الشعري الذي اختاره لفنه ، اذا ما أحدث شيئاً من التعديل لهذا الموضوع بان تتحول المشكلة الفردية في شعره الى

مشكلة جماعية . أعني ان تتحول مشكلة الوضع « الخاص » للمرأة في الواقع «الخاص» للشاعر ، الى مشكلة الوضع «العام» للمرأة في الواقع «العام» للمجتمع .. وواضح انني اقصد وضع المرأة العربية في واقعها الاجتماعي الذي تعيش فيه .

ولست من رأي نزار في ان العهد الاندلسي في الشعر كان عهداً من عهود السيادة التعبيرية، لان انتفاضة التجديد فيه كما اعتقد ، قد هزت الشكل وحده دون ان تصل تموجات الهزة نفسها الى المضمون.. ولست من رأيه ايضاً في ان زحمة الوجوه المتشابهة في شعرنا القديم قد ضاع فيها وجه مثل وجه شوقي ، لان هذا الشاعر في ميزان النقد يمثل مرحلة انتقال بين لونين من الوان الشعر هما اللون الكلاسيكي الذي سبقه واللون التجديدي الذي تلاه . ولقد ترتب على هذه المركزية التي وُضع فيها شوقي بين اتجاهين في خط سير الادب، ان اصبحت ملامح شخصيته الفنية متميزة لانها لم تنتسب انتساباً كاملاً من حيث التشابه الشعري الى هذا الاتجاه او ذاك . وانا بعد هذه الآراء متفق مع نزار في ان مشكلة التبعية والاستقلال في شعرنا العربي محتاجة الى دراسة ضخمة ، ليوضع كل شاعر في مكانه الحقيقي الذي تحدده القواعد المذهبية في النقد الحديث.

ولا خطر في رأيي من تقسيم الادب – من حيث التسمية الموضوعية – الى ملتزم وغير ملتزم ، لان نزار الذي فاجأني بعد كتابة هذه الكلمة برائعته « الالتزامية » الفذة : « خبز وحشيش وقمر» .. لا يصح بعد اليوم ان يغالطني بتصوره ان في هذا التقسيم خطراً على الادب! هذا هو الشعر الذي نريده؛ الشعر الذي تتحقق فيه للكلمة سيادة الاتجاه ... ومفهومها كما سبق ان قلت وكما سأظل اكرر : هو ان تتحول الكلمة الى ساحة من ساحات العرض الفني لمشكلة من مشكلات المجموع، او الى مركز من مراكز الاضاءة الفكرية لطريق مظلم تسلكه الجماهير .

مساجلات حول مفاهيم الادب

انا اشفق من كل قراءة سريعة ، اشفق من جنايتها على قيم الآخرين .. ان هذه القيم مع ذلك اللون من القراءة ، كثيراً ما تتعرض للفهم الخاطف الذي يقدم من نماذجها الحقيقية – اقصد نماذج هذه القيم – صوراً أقرب الى ان تكون مهزوزة!

ولا اريد بهذه الكلمات ان اسيء الى السيد محمود العالم ، لاني التمس له كثيراً من العذر في نقده « للعدد الماضي من الآداب » .. لقد حاول ان يحيط بكل شيء علماً ، ونقداً ، وتوجيهاً ، واضطر من اجل ذلك الى ان يتناول العدد من الغلاف الى الغلاف. كل هذا – اعني قراءة العدد كله والكتابة عنه كله – قد قام به الاديب الفاضل في فترة اعتقد انها قصيرة، حتى يستطيع المقال النقدي الذي أعده ان يلحق العدد التالي من « الآداب » .. ولهذا التمس العذر للقراءة السريعة ، مع إشفاقي – كما قلت – من جنايتها على قيم الآخرين !

اول خلاف بين الاديب الفاضل وبيني يدور حول التسمية الموضوعية للاتجاه الملتزم في الادب .. اقول انا في تعريف الالتزام بانه اتجاه اجتماعي بالتعبير الادبي نحو غاية معينة ، هي ان تتحول الكلمة الى اداة من ادوات الكفاح في سبيل الجماعة . ويقول هو عن هذا التعريف انه ليس تحديداً نهائياً لموضوع الالتزام ولكنه تحديد جزئي ينطبق على الادب الواقعي والاجتماعي دون سواه ... لماذا ؟ لان هناك ادباً يمكن ان نسميه ملتزماً وهو على النقيض ، ولان مجرد الالتزام يمكن ان يشمل اموراً متعارضة . منها مثلاً كل « خروج عن حدود الجماعة ، وكل تدعيم لحرية الفرد المطلقة ، أو اعتبار الكنيسة مخرجاً لازمة الانسان الحديث، او التعلق بالفعل العشوي ، أو تبرير الخيانة ، او الدفاع عن اللامبالاة ، او التغني بالزعيم المطلق ».. الى آخر ما اورده السيد محمود في هذا المجال . انه يريد ان يقول مثلاً ان كل اتجاه في الفن صادر عن موقف اجتماعي معين « يلتزمه » كل فنان ، وهذا حق لا اجادل فيه.. ولكن ما حاجتي الى هذه الكلمات وهي من تحصيل الحاصل الذي لا يمدني بشيء جديد ؟ ان الاديب الفاضل لو قرأ كلمتي قراءة متأنية ، لادرك من غير عناء أنني اريد التزاماً بعينه ، ولهذا لم اترك كلمة « الالتزام » الذي اريده تمر بلا تحديد .. فليكن في فنون الادب ومواقف الادباء الف اتجاه ملتزم ، ولكنني حددت لون الاتجاه الالتزامي الذي يتناسب مع اوضاعنا الاجتماعية ، من خلال ادب يمكن ان يشارك في توجيه هذه الاوضاع نحو اهداف متسامية .. ليس منها طبعاً ذلك الخروج الشاذ عن حدود الجماعة ، ولا ذلك التبرير المخجل لانواع الخيانة ، ولا تلك الدعوة الانهزامية الى قبول الزعامة المطلقة ! ان الالتزام الذي نريده والذي دعوت اليه وشرحت اكثر من مرة اهدافه ومراميه، هو في الادب ذلك المضمون الاجتماعي الذي لا يتنكر لشرف الثقافة .

واذا كانت قضيتنا اليوم كما يقول السيد محمود هي قضية

« ماذا يلتزم الاديب وما هي حقيقة موقفه الاجتماعي ، حتى نتبين التفرقة الحقيقية بين ادب واقعي متكامل وادب فردي ضيق » ، فانني متفق معه ... ذلك لانه يستطيع ان يخرج من كلماتي السابقة عن الادب الملتزم بهذه الحقيقة الواضحة ، وهي ان دعوتي الى التزام ادبي معين تؤلف مع دعوته الى « ما يلتزم الاديب » ، قضيتين مندمجتين في قضية واحدة حتى لتترتب احداهما «تلقائياً» على الاخرى وبلا حاجة الى تمييز .. ذلك لانني حين اطالب ادباءنا بان يتجهوا في إنتاجهم الى ذلك الالتزام الادبي المعين ، فمعنى هذا انني اطالبهم في نفس الوقت بان يكشفوا عن حقيقة مواقفهم الاجتماعية . فاذا كانت هناك استجابة فقد تبين موقف المستجيب وتميز اتجاهه ، وتحدد مفهوم السلوك الاجتماعي في قيم التعبير . واذا كان هناك تخلف فقد تبين موقف المتخلف كذلك سواء اتخذ هذا الموقف طابع التردد والجمود ، ام اتخذ طابع التحرك في اتجاه متعارض مع مفهوم الالتزام كما اعنيه .. وسنعرف تبعاً لذلك ماهية القضية الالتزامية في الانتاج الادبي سواء أكانت ماهية الفردية الضيقة ، ام كانت ماهية الواقعية المتكاملة !

وأنتقل بعد ذلك الى المشكلة الثانية التي أثرتها من قبل ثم ناقشها الاديب الفاضل ، وهي مشكلة النسبية في تقييم الفن .. انه في نقاشه لهذه المشكلة لا يعارض في ان تكون دراستنا التقييمية للاثار الفنية قائمة على الارتباط بينها وبين العصر الذي تنتسب اليه . على ان لا نقف في رأيه عند « حدود التسمية الخارجية بل نتجاوزها الى تكشف الوظيفة .. فالادب الرومانسي او الابتداعي في القرن التاسع عشر لم يكن ادباً رجعياً بل كان في جوانب كثيرة منه ادباً ثورياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . لماذا كان ثورياً ؟ للوظيفة المحددة التي قام بها هذا الادب في تلك المرحلة التاريخية الخاصة . هل كان مع الحركة الاجتماعية الصاعدة ام مع العناصر المتخلفة المتحللة التي تموت ؟ هذا هو تحديد النسبية في الوظيفة لا في التسمية » .. صورة مهزوزة رسمتها لي القراءة السريعة ، والا فكيف يعقل انني كنت احدد النسبية في تقييم الفن على ضوء التسمية الخارجية ؟! ان حديثي عن الادب الرومانسي في القرن التاسع عشر ، كان يدور حول التجربة المنعزلة التي ارتكز اليها الكيان الموضوعي لهذا الادب ... وما دمت قد ذكرت كلمة « تجربة » وقلت عنها انها كانت « منعزلة » ، فمفهوم التعبير لا بد ان يؤدي الى حقيقة « الدور » او طبيعة «الوظيفة» من ناحية القيم التحديدية .

وانا لم اقل ان الادب الرومانسي كان ادباً رجعياً، فليس شرطاً ان تكون التجربة المنعزلة تجربة رجعية ... كل ما كنت اريد ان اصل اليه هو الاشارة الى ان وظيفة هذا الادب ، كانت – في الاغلب الاعم – وظيفة الفردية الضيقة التي ركزت اشعة مضمونها الانساني في بؤرة الذات ، دون ان تهتم كثيراً بتركيز هذه الاشعة على مشكلة من مشكلات المجموع .

واذا كان هذا الادب ثورياً بكل ما في الكلمة من معنى كما يقول الاديب الفاضل ، فما هي المضامين الثورية التي يمكن ان نجدها في مجال القصة حين نذكر على سبيل المثال لا الحصر : « رينيه » لشاتوبريان ، و« ماريوك دلورم» لهيجو ، و« رفائيل» للامارتين ، و « ادولف » لكونستان ، و « غادة الكاميليا » لديماس الابن ، و « آلام ڤرتر » و « هرمن دورتيه » لجيته ، وفي مجال الشعر « أزهار الشر » لبودلير ، و « ليالي » دي ميسيه ، و« تشايلدهارولد» و«عروس ابيدوس» لبيرون .. الى آخر تلك الروائع بالنسبة الى قائمة الادب الرومانسي في القرن التاسع عشر !؟

هذا هو الادب الرومانسي وهذه هي وظيفته ؛ لم تكن وظيفة الرجعية المتحللة وانما كانت وظيفة الذاتية المغلقة التي تدور على نفسها دون ان تنتهي الى شيء ... وهي نفس الوظيفة التي كان يؤديها فى الربع الاول من هذا القرن أدب المنفلوطي وجبران وبقية الادب العربي بوجه عام . ولقد طبع الاتجاه الادبي بطابع المجتمع نفسه في ذلك الحين ، لان الوعي الاجتماعي لم يكن قد بلغ مرحلة التطور الناضج الذي يفرض سلطانه على الادب ، بحيث تتحقق لهذا الادب بلورة التجربة التطورية في صورتها الصاعدة . وهنا يمكن ان نطبق احدى نظريات سارتر الأدبية كما اشرت اليها ذات يوم ، وخلاصتها ان الادب صورة القارىء ... اي انه ثمرة مزاجه الفني واتجاهه الفكري ومعتقداته الاجتماعية ، وعلى ضوء ميوله وحاجاته ومطالبه يختار الادب « دوره » وهو مؤمن بان هذا الدور مطابق لتلك المطالب والحاجات والميول . وحين نطبق هذه النظرية الواعية على اتجاه ادبنا العربي اليوم واتجاهه في الربع الاول من هذا القرن ، نجد ان الجمهور

القارىء – وهو الخلاصة المعبرة عن الوعي الاجتماعي في كلتا المرحلتين – قد تخلف وعيه بالامس فعجز عن توجيه الادب ، بل تجاوب مع اتجاهه الرومانسي سواء في التأليف او الترجمة لانه كان انعكاساً صادقاً لتجاربه الفردية العامة .. ولهذا قلت ان ادب المنفلوطي وجبران كان ادباً واقعياً بالنسبة الى مرحلته التاريخية. واذا ما سرنا بنظرية سارتر حتى نهاية التطبيق، امكننا ان نقول ان ادبنا اليوم باتجاهه الواقعي الملتزم ، هو بلا شك نتاج هذا الوعي الاجتماعي المتطور للجمهور القارىء ، لان هذا الجمهور بحكم وضعه المنصهر في بوتقة التطور الصاعد قد اصبح يريد هذا اللون من الادب.. والخلاصة ان ادبنا بالامس كان يؤدي وظيفته الرومانسية التي هي في حقيقتها واقعية سلبية ، وان ادبنا اليوم يؤدي وظيفة الالتزام الذي هو في حقيقته واقعية ايجابية. وبهذا التوضيح الذي ارجو ألا يتعرض للقراءة السريعة هذه المرة ، يمكننا على ضوء مشكلة النسبية في تقييم الفن ، ان نحكم على اتجاه الدور الذي اداه شعر علي طه في « الملاح التائه » وشعر ناجي في « وراء الغمام » !

ولقد قلت ان شعر علي طه قد ساير مراحل التطور في الادب المصري فانتقل معها من دور الى دور ومن وظيفة الى وظيفة ، حتى انتهى اخيراً الى اتخاذ موقف اجتماعي يمثل الواقعية الايجابية ممثلة في الاتجاه الملتزم .. أعني انه لم يكن شعراً « جامداً » تنقصه عناصر التكييف الموضوعي في مفهومها المتجدد ، ولكنه كان خاضعاً – شأن كل ادب متطور – لتلك المنعطفات الاتجاهية المتفاعلة مع المجتمع . قلت هذا فقال الاديب الفاضل : « ان الحكم على موقف علي علي محمود طه الاجتماعي لا يكون بالاشارة الجزئية الى قصائده ، بل بتحديد اتجاهه الشعري العام » . ومعنى هذا – كما نخرج به من هذا الحكم الذي لم يقف به السيد محمود وقفة الناقد المطمئن – ان كل شاعر لكي نحدد اتجاهه الشعري يجب ان « يتجمد » في وضع فني واحد لا يكاد يتعداه ... واقول ان الناقد الفاضل لم يكن مطمئناً بشعوره العقلي الى « نهائية » هذا الحكم ، لانه ما لبث ان قفز الى استدراك مريح حين قال : وليس معنى هذا ان كل شاعر له اتجاه عام جامد ، بل انه يخضع لمنحنيات متعددة من التغير ، على المدى الطويل من حياته التعبيرية » .. استدراك مريح وهو كل ما كنت اريده من تصحيح !

وبقيت نقطة اخيرة حول لغة الشعر ، أحب ان التقي عبر مناقشتها مع السيد محمود .. انه يخشى ان اكون «في موقف المطالب من هؤلاء الادباء ببلاغة لغوية معينة ، قد تكون سليمة لتجارب فنية قديمة ولكنها لا تصلح ثوباً لتجاربنا الجديدة ولهذا يخشى كذلك ما اتهم به شعرهم من نثرية ، لان الفارق بين النثرية والشعرية في التعبير ليس فارقاً لغوياً بل هو فارق مجالي ، يتعلق بالسياق اكثر مما يتعلق بطبيعة الالفاظ المفردة » .. على الاديب الفاضل ان يطمئن ، لانه يستطيع ان يضم يده الى يدي لنكسر رقبة البلاغة القديمة دون أدنى حرج او اشفاق . ان تلك البلاغة القديمة هي التي جعلتنا كما قال نزار قباني وهو صادق ، لا نستطيع ان نميز في زحمة الوجوه المتشابهة وجه المتنبي من انف ابي تمام. وانا مع السيد محمود في بعض آرائه ومنها انني اصبحت اضيق بهذا « الانغلاق البيتي » على حد تعبيره، لانني افضل للتجربة الشعرية الحديثة ان تحطم هذا الاسر الذي يحد من حرية الانطلاق الصياغي، ويقف في وجه الامتداد العضوي لمضمون القصيدة . وانا حين اطالب بالمحافظة على لغة الشعر فانما اعني المحافظة على التركيب الشعري السليم، وذلك بأن نضع اللفظ المناسب في المكان المناسب من السياق.. ولست اريد ذلك اللفظ الزاخر في الذي تستخدمه البلاغة القديمة ، وانما اريد اللفظ الزاخر بالدلالة الموحية، اللفظ الذي لا يقتصر على معناه الخارجي المجرد وانما يتحول خلال السياق الى ما يشبه « المجال الحلقي » بالنسبة الى الصورة المرسومة ... وهذا الرأي سبق ان ابديته منذ بضع سنوات وانا أحدد أصول « الأداء النفسي » في الشعر على صفحات «الرسالة» وتبعاً لهذا المفهوم المحدد للغة الشعر كما ينبغي ان تكون ، يصبح من الطبيعي ان ادعو الى تخليص انتاجنا الشعري من لغة البرقيات الصحفية !

أما ذلك النقد التفصيلي الموضوعي لرواية « الارض » كما يطالبني به الاديب الفاضل ، فأرجو أن أقدمه الى القراء في العدد المقبل من « الآداب . »

القاهرة

انور المعداوي

صدر حديثاً

في موسكو.. مرة ثانية

للدكتور جورج حنا

الثمن ليرة واحدة — دار العلم للملايين